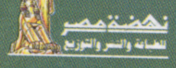
في التنوير الإسلامي

٣

أبو حيّان التوحيدي

بينَ الزَّنْدَقَة والإبداع

تأليف
د. محمد عمارة





إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

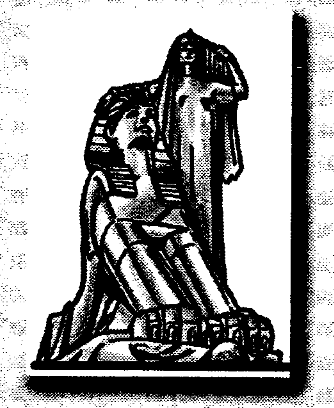
- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري .
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمي هويدي
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر





اسم السلسلة : فى التنوير الاسلامى
اسم الكتاب : أبو حيان التوحيدى
تأليف : دكتور / محمد عمارة
تاريخ النشر : مارس ١٩٩٧
رقم الإيداع : ١٤٢٠٥ / ٩٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-14-0547-0
الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة – مدينة ٦ اكتوبر
ت : ٣٣٠٢٨٧ – ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس : ٣٣٠٢٩٦/٠١١
مركز التوزيع : ١٨ شارع كامل صدقى – الفجالة – القاهرة
ت : ٥٩٠٩٨٢٧ – ٥٩٠٨٨٩٥ – فاكس ٥٩٠٣٣٩٥/٠٢
إدارة النشر : ٢١ ش أحمد عرابى (برج النهضة) المهندسين – القاهرة
ت : ٣٤٦٦٤٣٤ – ٣٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٣٤٦٢٥٧٦/٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان عمرو بن عبيد (٨٠ – ١٤٤هـ ، ٦٩٩ – ٧٦١م) ثانى اثنين – مع واصل بن عطاء (٨٠ – ١٣١هـ ، ٧٠٠– ٧٤٨م) – بلورا وقادا تيار الاعتزال ، وصاغا مقولات الفلسفة العقلانية الإسلامية . . وكان قائدا فى الثورة التى قوضت بناء الدولة الأموية . . وفى المعارضة للدولة العباسية ، تهتز له قوائم العروش ، ويحسب له الخلفاء كل حساب . .

وفى ذات الوقت ، كان عمرو بن عبيد العابد ، الذى حج من البصرة إلى بيت الله الحرام ، بمكة المكرمة ، أربعين حجة فى أربعين عاما ، سيرا على قدميه ، ومن خلفه راحلته ، التى يقودها ، حاملا عليها الضعفاء والفقراء ! .

وكان الزاهد ، الذى تخشع قلوبنا أمام دعائه لربه الذى كان يقول فيه : «**اللهم اغننى بالافتقار إليك !.. ولا تفقرنى بالاستغناء عنك !.. وأعنى على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة**» !..

ومع هذا الذى كان عليه عمرو بن عبيد – الذى رثاه وصلى عليه الخليفة أبو جعفر المنصور (٩٥ – ١٥٨هـ ، ٧١٤ – ٧٧٥م) . . وهى سابقة لم تتكرر مع غيره – لأن الكل كان «يطلب صيداً . . إلا عمرو بن عبيد» – كما قال المنصور ! – . . مع كل هذا ، وجدنا الخصومة الفكرية تذهب بأهل الحديث والسلفية النصوصية إلى حيث تصنفه فى «أهل الأهواء» ، حتى ليقول فيه الإمام الحنبلى «سيد الحُفَّاظ» يحيى بن معين (١٥٨ – ٢٣٣هـ ، ٧٧٥– ٨٤٨م) :

«**إنه كان من الدهرية الذين يقولون: إنما الناس مثل الزرع**» !!..

وهذا درس بليغ يدعونا إلى التماس أفكار المفكرين فى مقولاتهم

ومقالاتهم التى كتبوهاهم، وليس فيما كتبه عنهم الآخرون، مهما كان احترامنا لهؤلاء الآخرين..

لكن هذا الدرس – الذى تصل بداهته وقوته إلى حيث يغنيان عن طول الكلام فيه – كثيرا ما يتخلف الوعى به والالتزام بتنمياته فى الكتابة عن مقولات ومقالات كثير من الأعلام والمفكرين ، فيتوارث الخلف عن السلف الكثير من الأباطيل والأوهام ، التى ألصقها الخصوم بخصومهم الفكريين . .

والنموذج الذى تطمح هذه الصفحات إلى سبر أغوار الحقائق والأوهام التى شاعت عنه ، والتصقت به – قديما وحديثا – رغم كثرة ما كتب عنه – هو أبو حيان التوحيدى ، على بن محمد بن العباس (٣١٠ – ٤١٤هـ ، ٩٢٢ – ١٠٢٣م) . . والذى نريد عرض آراء الآخرين فيه على ما فى مصنفاته من آراء . . بل وتحقيق ماله وما ليس له فى هذه المصنفات ! . .

* * *

فكما اختلف القدماء فى تاريخ ميلاد التوحيدى ما بين عام (٣١٠هـ ٩٢٢م) وعام (٣٢٠هـ ٩٣٢م) اختلفوا فى الموطن الذى نشأ فيه ، فقيل : شيرازى . . وقيل : واسطى . . وقيل : نيسابورى . . وقيل : بغدادى . . بل لقد اختلفوا حتى فى تاريخ وفاته ما بين عام (٤٠٠هـ ١٠٠٩م) وعام (٤١٤هـ ١٠٢٣م) . .

وإذا كانت آثار الخلاف والاختلاف فى الموطن وفى تواريخ الميلاد والوفاة طبيعية – وفق ملابسات ذلك العصر – وهى مما لا يقلب الموازين فى تحديد مكانة المفكر ضمن تيارات الفكر ومذاهب التراث . . . **فإن الخطر الأكبر إنما يأتى إذا كان الخلاف والاختلاف فى عقائد المفكر الذى ندرسه.. ويصبح هذا الخطر خللا وكارثة إذا نحن**

ظللنا نلتمس عقائد ومذاهب مفكرينا فيما كتبه عنهم القدماء، من مصنفى المقالات والطبقات، وليس فى الفكر الذى أودعه هؤلاء المفكرون المصنفات التى صنفوها!..

وسيظل غريبا ومعيبا ألا تعى دراساتنا الحديثة والمعاصرة «الأبعاد المذهبية» فى التقويمات الفكرية التى جاءت عن أعلامنا فى كتب المقالات وموسوعات الطبقات..

ولعل نموذج أبى حيان التوحيدى أن يكون درسا بالغ الدلالة فى هذا المقام . .

لقد بدأ حديث القدماء عن عقيدة التوحيدى وفكره ومذهبه ، باتهام ابن فارس أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى (٣٢٩ – ٣٩٥هـ ، ٩٤١ – ١٠٠٤م) للتوحيدى بالكذب وقلة الدين والورع ، والقدح فى الشريعة والقول بالتعطيل – (أى نفى الصفات عن الله – سبحانه وتعالى–)[1]

وعلى درب هذه الإدانة سار ابن الجوزى ، أبو الفرج جمال الدين (٥١٠ – ٥٩٧هـ ، ١١١٦ – ١٢٠١م) ، الذى قال : «زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى ، والتوحيدى ، وأبو العلاء المعرى . وشرهم على الإسلام التوحيدى ، لأنهما صرحا ، وهو مجمج – (لم يُبَيِّن)– ولم يصرح»[2] ! . .

(١) السبكى (طبقات الشافعية الكبرى) جـ ٥ ص ٢٨٧ . تحقيق : د . محمود الطناحى ، وعبد الفتاح الحلو . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م

(٢) انظر مقدمة تحقيق (المقابسات) ص ٨ – لمحققها : محمد توفيق حسين . طبعة بيروت سنة ١٩٨٩م – وهو ينقل عن السيوطى (بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة) ص٣٤٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦هـ .

ومع ابن فارس وابن الجوزى سار الحافظ الذهبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧٣ - ٧٤٨هـ ، ١٢٧٤ - ١٣٤٨م) الذى رمى التوحيدى بسوء الاعتقاد والضلال والإلحاد[1] . .

وعلى ذات الدرب سار الخوانسارى ، محمد باقر الموسوى (١٢٢٦- ١٣١٣هـ ، ١٨١١ - ١٨٩٥م) ، الذى قال : «كان التوحيدى كذابا ، قليل الورع . .»[2]

وفى مقابل هذه النماذج لاتهام التوحيدى فى عقيدته ، والتجريح لمذهبه ، نجد موقف ابن النجار ، محب الدين ، أبو عبد الله ، والذى عاصر ابن الجوزى ، وسمع منه ، لكنه خالفه فى رأيه ، فقال عن التوحيدى : «كان أبو حيان فاضلا لغويا نحويا شاعرا ، له مصنفات حسنة ، وكان فقيرا صابرا ، متدينا ، حسن العقيدة»[3]

وعلى درب الثناء على التوحيدى ، ورفض اتهامه فى اعتقاده سار ياقوت الحموى (٥٧٤ - ٦٢٦هـ ، ١١٧٨ - ١٢٢٩م) ، الذى ارتفع بالتوحيدى إلى الذروة ، فقال : إنه «شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ،

(١) الذهبى (ميزان الاعتدال) جـ ٤ ص ٥١٨ . تحقيق : على البيجاوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م . انظر : د . أيمن فؤاد سيد . مجلة (فصول) - المجلد الرابع عشر ، العدد الثالث - خريف سنة ١٩٩٥م .

(٢) د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٢٦ . طبعة دار المعارف - القاهرة - سلسلة «نوابغ الفكر العربى» - والنقل عن (روضات الجنات) جـ ٤ ص ٢٠٥ .

(٣) مقدمة تحقيق (المقابسات) ص ٨ - والنقل عن ابن حجر العسقلانى (لسان الميزان) جـ ٦ ص ٣٧٠ طبعة الهند سنة ١٣٢٩هـ .

وإمام البلغاء . . فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن ، واسع الدراية والرواية»[1]

ومع المدافعين عن التوحيدى ، وقف السبكى ، تاج الدين ، عبد الوهاب بن على (٧٢٧ - ٧٧١هـ ، ١٣٢٧ - ١٣٧٠م) ، الذى تحدث عن التوحيدى - وقد ترجم له فى طبقات الشافعية - فقال قول الباحث فى القضية الخلافية : «ولم يثبت عندى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه . ووقعتُ على كثير من كلامه ، فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل»[2]

أما الحافظ ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين أبو الفضل (٧٧٣ - ٨٥٢هـ ، ١٣٧٢ - ١٤٤٩م) فلقد اكتفى بأن نقل آراء الذين اتهموا التوحيدى والذين برءوه . . نقل قول الذين قالوا : «إنه كان كذابا ، قليل الدين والورع ، مجاهرا بالبهت ، تعرض لأمور جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل» . . وقول الذين قالوا : «إنه كان فاضلا فقيرا ، صابرا ، متدينا ، حسن العقيدة»[3] . .

تلك هى «خارطة» آراء الأقدمين فى أبى حيان التوحيدى ، انتقلت متناقضاتها الحادة - ما بين الزندقة والتصوف - مرورا بالفلسفة والكلام والاعتزال - إلى مؤلفات المعاصرين عن

(١) المرجع السابق . ص ٨ - والنقل عن (معجم الأدباء) جـ ١٥ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

(٢) د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٥٣ - والنقل عن (طبقات الشافعية) جـ ٥ ص ٢٨٧ .

(٣) مقدمة تحقيق (المقابسات) ص ٨ - والنقل عن (لسان الميزان) جـ ٦ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

التوحيدى . . مع غيبة المنهج الذى يفسر هذه المتناقضات فى ضوء «العامل المذهبى» لأصحابها . . والذى ينتقل بمنطلقات التقويم للرجل من آراء كتاب المقالات والتراجم فيه ، إلى مقالاته هو فيما صنف من مؤلفات ! . .

ذلك أن الوعى بدور «العامل المذهبى» لأصحاب هذه الآراء ، ودور التكوين الفكرى والتجربة الحياتية لكل منهم ، كفيل بحل ألغاز هذه المتناقضات . .

فابن فارس ، الذى بدأ سلسلة اتهام التوحيدى فى عقيدته . . كان معاصرا لأبى حيان ، يساكنه فى مدينة «الرى» ، حيث كان الوزير الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ ، ٩٣٨ - ٩٩٥م) . . وكان ابن فارس أستاذا للصاحب بن عباد . . بينما كانت للتوحيدى تجربة مرة مع الصاحب ، الذى أراد حبس التوحيدى على مكانة «الناسخ - الورّاق» ، وحال بينه وبين تجاوز هذه المهنة - التى كان يسميها التوحيدى «مهنة الشؤم» ! - وانتهت تلك التجربة المرة بفرار التوحيدى من وعيد ابن عباد ، الذى هجاه التوحيدى هجاء لا أخلاقيا - مع ابن العميد - فى كتابه (مثالب الوزيرين) ! . .

هذا هو موقع ابن فارس من أبى حيان . .

أما ابن الجوزى ، فكان حنبليّاً . . من أهل الأثر . . الذين يضيقون بأهل الرأى . . فما بالنا إذا كان هذا «الرأى» الذى امتلأت به مصنفات التوحيدى جامعا لآراء الفلاسفة والمناطقة - على مذهب أرسطو - وإخوان الصفا ، الذين مزجوا الأفلاطونية بالإشراقية الباطنية الغنوصية بالإسلام ؟! . .

ومثل أبن الجوزى - فى التزام مذهب المحدّثين ، أهل الأثر - كان الحافظ الذهبى - رغم أنه كان شافعيا فى الفقه - علم الفروع - . .

أما الخوانسارى ، فلقد جعله تشيّعه خصما للتوحيدى ، الذى اخترع «رسالة السقيفة» ، مفضلا فيها أبا بكر الصديق على على ابن أبى طالب - رضى الله عنهما - وهو ما يناصبه الشيعة كل وأشد العداء - ! . .

أما الذين دفعوا عن التوحيدى اتهامات الحنابلة وأهل الأثر والمحدّثين . . فمنهم ابن النجار ، الذى كان شافعى المذهب ، كالتوحيدى . . وكان مؤرخا ، ليس طرفا فى صراعات المتكلمين ، فهو إلى أهل «الرأى» أقرب . . وكذلك كان السبكى - الشافعى ، الذى أرخ لطبقات الشافعية - ومنهم التوحيدى - . والذى - وهذا هام جدا - عانى من تعصب شيوخ عصره ، الذين اتهموه هو الآخر فى عقيدته !- . . فقرأ التوحيدى ، وكتب مدافعا عن عقيدته كتابة الباحث الخبير ، عندما قال : «ولم يثبت عندى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه ، ووقعت على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل . .» ! . .

أما ياقوت الحموى ، الذى قرأ الكثير من كتابات التوحيدى - وكان له فضل حفظ العديد من هذه الكتابات - فلقد كانت قراءاته هذه مصدرا للصورة المشرقة التى قدمها عن جهد التوحيدى ومكانته . . كما وقفت وراء ذلك الإنصاف أوجه للشبه بين ياقوت وبين أبى حيان . . فكلاهما لم يكن صاحب حسب ونسب - فياقوت كان رقيقا أعتقه سيده - وأبو حيان كان من غمار الناس ، حتى أنه كان - كما قال ياقوت «عمدة لبنى ساسان» - أى قائدا لجماعة من المتسولين[1] !! - . . وكانا - التوحيدى وياقوت -

(١) (معجم البلدان) جـ ١٥ ص ٥ .

يعيشان من التكسب بحرفة «الوراقة . . ونسخ المخطوطات» . . وكانا - أيضا - من أهل الجمع والرواية للأفكار والأخبار ، أكثر مما كانا من أهل الإبداع والاجتهاد والابتكار . .

تلك هى ثمرات الوعى «بالخارطة المذهبية والحياتية» لأصحاب تلك الآراء المتناقضة والمتضادة ، التى تجاورت فى كتابات القدماء عن أبى حيان التوحيدى ، والتى انحدرت من كتب القدماء إلى كتابات المعاصرين ، دون تفسير لهذا التناقض والتضاد ! . .

* * *

وإذا كانت تلك هى ثمرة الوعى بالعامل المذهبى والخبرة الحياتية والتكوين الفكرى لكتاب الترجمات . . **فإن الفيصل الأول والأهم فى تحقيق الاتهامات ، بل والمناقب والفضائل ، إنما هو لكتابات الأعلام الذين توجه إليهم الاتهامات ، أو تكال لهم المدائح وآيات الثناء . .**

وهذا هو الذى تطمح إليه هذه الدراسة ، وصولا إلى فصل المقال فيما أحاط بالتوحيدى من حقائق ومن أكاذيب وأوهام ! . .

فماذا تقول كتابات التوحيدى عن الاتهامات التى اتُّهِم بها ؟ . . وعن صفات وملكات المديح والإطراء التى أضفيت عليه ؟ . . لعلنا نسهم بذلك فى التنبيه على عناصر منهاج موضوعى للتعامل مع التراث . .

هل كان التوحيدى زنديقا ؟ ! :

كان التوحيدى «ناسخا . . ووراقا» ، وجامعا للروايات والأفكار والشواهد والمأثورات ، أكثر مما كان «مبدعا خلاقا» . . وكانت إضافاته واستنباطاته وصياغاته تميزه عن غيره من «الرواة» الذين لم يمتلكوا مواهبه الأدبية والفنية التى تميز بها . . **ومن هنا تأتى ضرورة التمييز - ونحن نبحث عن عقيدته فى مؤلفاته ومصنفاته - بين إضافاته وبين رواياته عن الآخرين..** ولحسن الحظ فلقد كان الرجل دقيقا وأمينا عندما نسب الروايات والمأثورات والأفكار إلى أصحابها ، مميزا لها عَمَّا له من إضافات واستنباطات . .

وللأسف الشديد ، فإن هذا المنهاج البدهى ، فى التمييز بين إضافات الرجل ، التى تحسب له وعليه ، وبين الروايات التى رواها وجمعها وصنّفها . . هذا المنهاج لم يلتفت إليه ، ولم يلتزم به الذين اتهموه فى عقيدته قديما . . ولا الذين رووا آراء القدماء ، فى عقيدته ، وفى مكانته ، من الدارسين المعاصرين ! . .

فهل كان التوحيدى - فى إضافاته واستنباطاته - زنديقا ؟ . .

إن إبداعات الرجل تنفى هذا الاتهام على وجه القطع واليقين . .

فهو لا يقف ، فقط ، عند الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ولا عند البرهنة على وجوده ، وعلى إبداعه لهذا الوجود . . **وإنما ينبه على حدود العقل ومحدوديته فى العلم الإلهى.. فيقول: «فالله الذى لا سبيل للعقل أن يدركه أو يحيط به أو يجده وجدانا، أولى وأحرى أن يُمْسَكَ عنه عجزا أو استخذاء، وتضاؤلا واستعفاء، إلا بما وقع الإذن به من جهة صاحب الدين الذى هو مالك أزمّة العقول ومرشدها إلى السعادات، وواقفها عند الحدود، وزاجرها عن التخطى إلى ما لا يجوز.**

فعلى هذا قد وضح أن الصمت فى هذا المكان أعود على صاحبه من النطق ، لأن الصمت عن المجهول أنفع من الجهل بالمعلوم ، والتظاهر بالعجز فى موضعه كالاستطالة بالقدرة فى موضعها ، وليس للخلق من هذا الواحد الأحد إلا الإنِّيَّة[1] والهوية ، فأما كيف ؟ ولمَ ؟ وماهو ؟ فإنها طائرة فى الرياح كما تسمع وترى[2] »! . . فهو مؤمن ، وداعية للإيمان بعجز العقل عن أن يكون الحاكم فى الإلهيات والغيبيات . .

والدين – الذى هو تكليف إلهى – عند التوحيدى هو الأساس والدعامة فى الخُلُق وفى سائر ميادين العمران للدنيا والآخرة جميعا . . وعن ذلك الاعتقاد يقول هو – وليس الذين روى عنهم – : «وأنا أقول : . . . كيف تصح الفتوة إذا خالفها الدين؟ وكيف يستقر الدين إذا فارقته الفتوة ؟ . **الدين تكليف من الله تعالى**، والفتوة أخلاق بين الناس ،**ولا خُلُق إلا ماهذبه الدين، ولا دين إلا ماهذبه الخُلُق**[3].. **فالدين هو العمود والدعامة فى عمارة الدارين**[4]..».

فالدين تكليف إلهى ووحى سماوى ، ولا خُلُق إلا بالدين . .

(١) الإنِّيَّة – بكسر الهمزة والنون مشددة ، وفتح الياء مشددة – : هى الوجود الفردى المتعين ، مقابل الماهية . . وهى – عند الصوفية – تدل على الذات العلية على أنها هى هى دون حاجة إلى بيان صفة . انظر (المعجم الفلسفى) – وضع : مجمع اللغة العربية – طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م .

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) جـ٣ ص١٢٤ ، ١٢٥ . تحقيق : د . أحمد أمين ، أحمد الزين . طبعة القاهرة ١٩٤٤م .

(٣) (الصداقة والصديق) ص ٥٧ ، ٥٨ . تحقيق : على متولى صلاح . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م .

(٤) (الإمتاع والمؤانسة) جـ٢ ص ١٩٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٢م .

ولاقيام للدنيا ولاسعادة فى الآخرة إلا بالدين . . والدين عند التوحيدى ، ليس مجرد خُلُق ، ولا هو فقط إيمان بإله خالق وشعائر وعبادات . . وإنما هو أيضا شريعة حاكمة لتدابير الدنيا والسياسة والاجتماع الانسانى . . وهو – فى تقرير هذه الحقيقة يتحدث عن «الشريعة التى جعلها الله – تعالى – تمام الشرائع ومضافة إلى الرسول ﷺ الذى ختم الله – عز وجل – به الأنبياء والرسل[1] » وكيف «**أن الناظر فى أحوال الناس ينبغى أن يكون قائما بأحكام الشريعة، حاملا للصغير والكبير على طرائقها المعروفة؛ لأن الشريعة سياسة الله فى الخلق**، والملك سياسة الناس للناس ، على أن الشريعة إذا خلت من السياسة كانت ناقصة ، والسياسة متى عريت من الشريعة كانت ناقصة[2] . .»

وإذا كان الدين ، عند التوحيدى ، هو الدعامة والعمود للدنيا والآخرة ، وشريعته الإلهية هى قانون سياسة الله فى الخلق ، فإن همّ الإنسان بالدار الآخرة ، عند التوحيدى ، يرجح همه بالدنيا ، لأنها هى المعاد والمآب ودار الخلود ، فهى خير وأبقى «.. **والإنسان فى هذا العالم، وإن بلغ المنتهى فى أمانى نفسه من كل علم**، كالهندسة والحساب والنجوم والطب وسائر أجزاء الفلسفة ، وكذلك إن أشرف على غاية كل علم يتعلق بالأديان والآراء والمقالات والنِّحَل ، **فإن آخر مطالبه أن يعلم معاده ، ويعرف منقلبه**. وكذلك – أيضا – إذا بلغ فى الدنيا كل حال عَلِيَّة ، وكل دولة سنيّة ، من المال والثروة واليسار والعزة والأمر والنهى والتأييد على أصناف البريّة ، ونيل كل

(١) (البصائر والذخائر) جـ١ ص ٣٦٩ . انظر : د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص٥٨ .

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ٢ ص٣٣ .

شهوة ولذة ، وبلوغ كل إرادة وأمنية ، **فإن آخر مايقترحه أن يقف على مايتحول إليه، ويصير مرتهنا به ومفكوكا منه، فقد صار النظر فى هذه الخاصة والخالصة من أشرف ما فى قوة الإنسان، وأعلى ما فى همته، وأعظم فوائده[1]..»**

فكفة الآخرة - عند الإنسان - هى الأرجح على ما فى الدنيا من ثروات وسلطات . . وإذا قامت ثقافة الإنسان على علوم عالمى الغيب والشهادة ، فإن اهتمامه «بالمصير» أكبر من اهتمامه «بالمسير» ! . .

ولم يكن التوحيدى ، إزاء الدين والتدين ، مجرد «مفكر» يتحدث «بالمنطق» عن ضرورة من ضرورات سياسة الدنيا وتدبير الاجتماع الإنسانى . . وإنما كان - على المستوى الإنسانى والذاتى - متعلقا بحبال الدين طلبا لنجاته يوم الدين! . . فهو يتضرع إلى الله قائلا : «جعلنا الله - عز وجل - يوم الفزع الأكبر فى زمرة رسوله ﷺ كما جعلنا من أمته ، ورزقنا شفاعته ، كما ألهمنا طاعته بمنّه وجوده [2] . .»

ولقد كانت ثقته فى الله بلا حدود ، ورجاؤه فى عفوه ورحمته فى مستوى اليقين . . حتى أنه ، فى أحرج اللحظات ، وعندما كان يحتضر . . التف حوله جمع من عارفيه وذويه ، فقالوا - وقد عاينوا قرب لقائه لمولاه - : «اذكروا الله ، فإن هذا مقام خوف . وكل يسعى لهذه الساعة . وجعلوا يذكّرونه ويعظونه» . . فما كان من

(١) (المقابسات) ص ٣٥٤ .

(٢) (البصائر والذخائر) جـ١ ص ٣٦٩ . انظر : د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٩٨ .

التوحيدى إلا أن «رفع رأسه إليهم وقال : كأنى أُقدم على جندى أو شرطى ! إنما أقدم على رب غفور[1] . .» . . وصعدت روحه إلى بارئها ، فى لحظة من لحظات الثقة فى عفو الله ! . .

فهل هناك مجال للقول بأن صاحب هذا «الفكر» وهذا «الموقف» كان زنديقا . . فضلا عن أن يكون شر زنادقة الإسلام ؟! . . أم أنه «ضيق أفق التعصب المذهبى» هو الذى رمى التوحيدى بهذا الاتهام ؟! . .

(١) ابن حجر العسقلانى (لسان الميزان) جـ٦ ص٣٧٠ . انظر : حسن الملطاوى (الله والإنسان فى فلسفة أبى حيان التوحيدى) ص ٨٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م .

وهل كان التوحيدى فيلسوفا ؟:

وإذا لم يكن التوحيدى زنديقا – يبطن الكفر ويظهر الإسلام – فهل كان تفلسفه السبب فى رميه بالزندقة ، من قبل الذين لا يميزون بين الزندقة والتفلسف – وهم تيار فى ثقافتنا وتراثنا ؟ . .

إن عددا من الدارسين المعاصرين للتوحيدى ، قد أضفوا عليه – من باب المدح لا القدح – صفة الفيلسوف . . فهو – عند البعض– «**كان فيلسوفا** بحث عن الحقيقة ، وأثار التساؤل إزاء جميع المقولات الصعبة أو المحرمة فى زمانه ، وكان له جواب جرىء عميق . . وهو أول فنان **وفيلسوف فن** فى تاريخ الإبداع العربى ، استطاع أن يقدم **فلسفته الجمالية** عن خبرة جمالية إبداعية ، واستطاع أيضا أن يلخص مفهوم **فلسفة الفن** عند العرب فى القرن الرابع الهجرى[1] . .» . .

كما كان موضوعا لرسالة ماجستير فى الفلسفة . . تحدثت عن «**أن صلة التوحيدى بالفلسفة.. والفكر والقضايا الفلسفية صلة وثيقة وأصيلة، بمعنى أن له فى هذا الميدان علما وإحاطة واهتماما.. وهو فيلسوف وجودى من حيث ارتباط فكره بحياته**[2]..»..

فهل حقا كان التوحيدى فيلسوفا . . حتى يجوز لنا أن نمدحه بذلك ؟ . . أو أن يقدح البعض فى اعتقاده لذلك أيضا ؟! . .

إن التوحيدى نفسه هو الذى يقرر أنه لم يكن من أهل هذا الميدان . . **فكتابه (المقابسات).. والذى هو محاورات فلسفية، تسود فيها**

(١) د . عفيف البهنسى (فلسفة الفن عند التوحيدى) ص ٣٤ ، ٣٥ . طبعة دمشق ١٩٨٧م .
(٢) (الله والإنسان فى فلسفة أبى حيان التوحيدى) ص ١٠ ، ١١ .

الأفلاطونية الحديثة - فلسفة الحدس الصوفى - جميعه نقول ومأثورات وروايات يرويها التوحيدى منسوبة إلى فلاسفة عصره، الذين عاشرهم، ونسخ مؤلفاتهم، ودون حواراتهم، وكتب أجوبة الأسئلة التى وجهها إلى بعضهم.. وهو قد دوّن هذه المحاورات الفلسفية استجابة لمن طلب منه ذلك.. وأعلن أنه مجرد راوية ومدون لآراء الفلاسفة، وجامع لها . . وفى ذلك يقول – مخاطبا من طلب منه هذا الجمع والتدوين – : «أطال الله حياتك . . لم يذهب علىّ حظى فى البدار إلى رسمك ، والسرع إلى طاعتك ، فيما أشرتَ إليه ، وحضضت عليه ، **من تصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك.. عن مشائخ العصر الذى أدركته والزمان الذى لحقتهم فيه.. فأقبلتُ.. أتألّف ما شرد منها، وأنظم ما انتشر منها، وأرقّع بجهدى وطاقتى شملها، وأُحلّى بوسعى عطلها**[1]..»..

وأكثر من هذا – فى حسم هذه القضية – نجده فى كتابه (الصداقة والصديق) ينفى أن يكون من أهل هذا الفن وذلك الميدان . . فبعد أن ينقل عن أبى سليمان السجستانى (٣٧٢هـ ٩٨٣م) – وهو من الفلاسفة المعاصرين الذين ينقل عنهم التوحيدى ، فى كتبه ، مئات الصفحات ! – بعد أن ينقل عنه كلاما فى الصداقة . . يمسك عن أن يدون فى كتاب (الصداقة والصديق) ما قاله أبو سليمان من الفلسفة ، لأنه – بعبارة التوحيدى – «لا يدخل فى هذه الرسالة» و«**لأنه من الفلسفة، التى هى موقوفة على أصحابها، لا نزاحمهم عليها، ولا نماريهم فيها**[2]»..

فكما لم يكن الرجل «زنديقا» . . فإنه لم يكن «فيلسوفا» ! . .

(١) (المقابسات) ص ٥٤ - ٥٦ .
(٢) (الصداقة والصديق) ص ٥٦ .

وهل كان معتزليا ؟ :

وإذا لم يكن التوحيدى «زنديقا» . . ولا «فيلسوفا» . . فهل كان «معتزليا» ؟ . . حتى يذهب الذين صنفوا المعتزلة فى أهل الأهواء والزندقة إلى اعتباره زنديقا ، بل وأشرّ زنادقة الإسلام ؟! . . أو يذهب الذين يحتفون بالعقلانية الاعتزالية إلى الإشادة به كواحد من المتكلمين المعتزلة ؟؟ . .

لقد ذهب هذا المذهب - من القدماء - طاش كوبرى زاده (٩٠١ - ٩٦٨هـ ، ٤٩٥ - ١٥٦١م) الذى قال : «كان التوحيدى معتزليا يسلك مسلك الجاحظ ، شيخ الصوفية[١] »!! . . وفى هذا القول تناقض غريب على عالم مثل طاش كوبرى زاده - ولعله من أخطاء النساخ التى فاتت على فطنة المحققين - إذ ما علاقة الاعتزال بالتصوف ؟! . . وما علاقة الجاحظ بمشيخة الصوفية ؟! . .

كما ذهب هذا المذهب - القائل باعتزال التوحيدى - كثير من المعاصرين[٢] . . بل ونسبوا التوحيدى إلى الاعتزال ، مع استبعاد الصاحب بن عباد من هذا الاعتزال . . فقالوا : «كان التوحيدى يتفلسف على طريقة المعتزلة ، ميالا إلى الجدل والأبحاث العقلية ، بخلاف الصاحب بن عباد ، الذى كان يحب العلوم الشرعية ، ويبغض الفلسفة وما يشبهها من علوم الكلام[٣] . .» . . وهذا نموذج لمنهاج الخلط الذى ساعد عليه الانطلاق من آراء كُتاب الطبقات ، لا من مصنفات الذين ندرس مقالاتهم ومذاهبهم . . ولو وعوا

(١) (مفتاح السعادة) جـ١ ص ٢٣٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .
(٢) انظر - على سبيل المثال - د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٥٥ .
(٣) المرجع السابق . ص ٢٥ .

كتابات التوحيدى لعلموا أن تأثره بالجاحظ إنما كان فى الأسلوب ، لا فى الأصول الخمسة للاعتزال . .

فالمعتزلة لم يذكروا اسم التوحيدى فى طبقات رجالهم . . بينما ذكروا اسم الصاحب بن عباد[١] ! . . وأصالة الصاحب فى فكر الاعتزال تتعدى وجود اسمه فى كتب طبقات المعتزلة ، لأن له كتبا شاهدة على مذهبه هذا . . ومنها (الإبانة عن مذهب أهل العدل)[٢] . .

بل إن التوحيدى - الذى عاش فى «الرى» - معاصرا للقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى (٤١٥هـ ١٠٢٤م) - الذى مثل صحوة الاعتزال بعد اضطهاد المتوكل العباسى (٢٠٦ - ٢٤٧هـ ٨٢١ - ٨٦١م) لفكرهم وأعلامهم - دون أن ترد فى كتاباته إشارة إلى هذه الصحوة الاعتزالية وإمامها - هو - التوحيدى - الذى يشهد بأن الصاحب بن عباد كان على مذهب المعتزلة . . فعندما يسأله الوزير ابن سعدان (٣٧٥هـ ٩٨٥م) :

- « إنى أريد أن أسالك عن ابن عباد . .» . . يجيب التوحيدى :

- «.. **إن الغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجنة بطرائقهم.. وهو يدين بالوعيد**[٣]..»

فأن يقال عن التوحيدى : إنه كان معتزليا ، بخلاف الصاحب بن عباد ، الذى كان يحب العلوم الشرعية . . لا علم الكلام . . هو

(١) انظر : أبو القاسم البلخى ، القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى ، الحاكم الجشمى (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٦١ .
تحقيق : فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م
(٢) انظر طبعة بغداد - سنة ١٩٦٣م - لهذا الكتاب . بتحقيق : محمد حسين آل ياسين .
(٣) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ١ ص ٥٣ - ٥٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩م .

كلام غريب ، فضلا عن أنه يقيم تناقضا غريبا بين الاعتزال وبين العلوم الشرعية . . وبين المعتزلة وعلم الكلام ، الذين كانوا هم رواده وواضعيه؟! . .

* * *

وفوق كل ذلك ، فإن مذهب التوحيدى فى القضاء والقدر - الجبر والاختيار - . . وفى العقل والعقلانية ، يجعله خارج دائرة الاعتزال بلا جدال ! . .

فهو فى قضية الجبر والاختيار ، لا يقف موقف المعتزلة مع «الاختيار» . . وإنما يقف موقف من تكافأت لديهم أدلة «الجبر» مع أدلة «الاختيار» - وهو مالا يقول به معتزلى على الإطلاق . .

فعندما يسأل الوزير ابن سعدان التوحيدى ، فيقول :

- «كنتَ حكيت لى أن العامرى - أبو الحسن العامرى (٣٨١هـ ٩٩١م) - صنّف كتابا عنوانه (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) ، فكيف هذا الكتاب؟» . . تأتى إجابة التوحيدى ، معبرة عن تكافؤ أدلة كل من الجبر والاختيار لديه . . فيقول :

- «هذا الكتاب رأيته بخطه عند صديقنا وتلميذه أبى القاسم الكاتب ، ولم أقرءه على العامرى ، ولكن سمعت أبا حاتم الرازى يقرؤه عليه .

وهو كتاب نفيس ، وطريقة الرجل قوية . ولكنه ما أنقذ البشر من الجبر والقدر ، **لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما والناظرين فيهما.. إن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأواتى من معدن الإلهيات، أقرّ بالجبر، وعرّى نفسه من العقل والاختيار والتصرف والتصريف، لأن هذه وإن كانت ناشئة من ناحية البشر، فإن منشأها الأول إنما هو من الدواعى والبواعث والصوارف والموانع التى تنسب إلى الله الحق. فهذا هذا.**

فأما من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسبين الفاعلين المُحْدِثين اللائمين الملومين المكلفين، فإنه يعلقها بهم ويلصقها برقابهم، ويرى أن أحدا ما أتى إلا من قِبَل نفسه وبسوء اختياره وبشدة تقصيره وإيثار شقائه. والملحوظان صحيحان، واللاحظان مصيبان، لكن الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف، لأنه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية[1]..»

فالقول بكل من الجبر والاختيار - عند التوحيدى - صحيح - «الملحوظان صحيحان واللاحظان مصيبان» . . وهذا مالا يقول به أحد من أهل الاعتزال . .

وكذلك رأى التوحيدى فى العقل ومقامه . . لا يقول به أهل الاعتزال . . فالمعتزلة يجعلون الأدلة أربعة ، لا ثلاثة . . فهى - على هذا الترتيب - : العقل ، والكتاب ، والسنة ، والإجماع[2] - مع التنبيه على أن تقديم العقل على الكتاب والسنة إنما هو «تقديم ترتيب» ، لأنه هو سبيل النظر والاجتهاد فيهما ، وليس «تقديم تشريف وتعظيم» - . . وليس هكذا رأى التوحيدى فى العقل والعقلانية . .

فهو وإن تحدث عن العقل باعتباره «خليفة الله ، القابل للفيض الخالص الذى لا شوب فيه ولا قذى ، وإن قيل : هو نور فى الغاية لم يكن ببعيد ، وإن قيل : إن اسمه مُغْنٍ عن نعته لم يكن بمنكر[3] . .»

(١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧ .

(٣) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ٣ ص ١١٦.

.. إلا أننا نجد قلق موقفه من العقل عندما يقول : « . . والعقل سريع الحؤل - (التحوّل) - خفى الخداع[1] » ! . .

بل ونراه يقول بمالا يقول به معتزلى ، عندما يفضل منهاج «أهل الحديث» ، بل و «إيمان العجائز» على منهاج المتكلمين وعقلانية العقلانيين وتأسيس الإيمان على البراهين . . فيقول عن طريقة المتكلمين : «**إن الطريقة التى التزموها وسلكوها لا تفضى بهم إلا إلى الشك والارتياب**، لأن الدين لم يأت بكمٍّ وكيف فى كل باب ، **ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر**. والقلب الخالى من الشبهة أسلم من الصدر المحشو بالشك والريبة . ولم يأت الجدل بخير قط . وقد قيل : **من طلب الدين بالكلام ألحد**، ومن تتبع غرائب الحديث كُذِب ، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر . وما شاعت هذه الوصية جزافا ، بل بعد تجربة كررها الزمان ، وتطاولت عليها الأيام ، **يتكلم أحدهم فى مائة مسألة ويورد مائة حجة ثم لا ترى عندهم خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى ولا دمعة ، وإن كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجون ولا يناظرون ولا يُكرَمون ولا يُفضّلون خير من هذه الطائفة وألين جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله -عز وجل- وأذكرُ للمعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألْوَذ بالله من صغير الذنب ، وأرجع إلى الله بالتوبة. ولم أر متكلما فى مدة عمره بكى خشية ، ولا دمعت عينه خوفا ، أو أقلع عن كبيرة رغبة ، يتناظرون مستهزئين ، ويتحاسدون متعصبين ، ويتلاقون متخادعين ، ويصنّفون متحاملين ، جَذَّ الله عروقهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ، فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم ، ودب داؤهم ،**

(1) المصدر السابق . جـ ١ ص ٩ .

وعسر دواؤهم ، وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضعا وساكنه متجعجعا[1] ..»[2]

ونحن هنا لا نناقش صواب أو خطأ هذا الذى قال به التوحيدى . . وإنما نسوقه تنبيها على خطأ ، بل وغفلة الذين تحدثوا عن اعتزاليته وعقلانيته ، واشتغاله بالفلسفة وعلم الكلام . . فالرجل يفضل منهاج «أصحاب الحديث أنصار الأثر» على منهاج «المتكلمين» ، بل ويتهم المتكلمين فى دينهم ، قائلا : «**من طلب الدين بالكلام ألحد**» !..

ويتمنى استئصال شأفتهم ، وإراحة العباد والبلاد منهم ، حتى لكأنه نوح الذى يدعو الله ألا يذر على الأرض منهم ديّارا . . .

فأنَّى تكون للرجل صلة بالاعتزال والكلام والفلسفة والعقلانية؟! . . إن قراءة آثار التوحيدى ، ووعى دلالات إضافاته واستنباطاته هو الفيصل فى تحديد موقعه من تيارات الفكر . . وليست أحكام كتاب التراجم والطبقات ، تلك التى تلونت بالعصبيات المذهبية لأصحابها . . ثم تناقلها اللاحقون عن السابقين ، حتى ابتلع طُعمها كتابنا المعاصرون ! . .

(1) متجعجعا : أى ضاربا بنفسه الأرض من الوجع .

(2) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ١ ص ١٤٢ .

وهل كان متصوفا ؟ :

لقد كانت بداية الحديث عن علاقة أبى حيان التوحيدى بالصوفية والتصوف ، انطلاقا من كلمتين ذكرهما ياقوت الحموى ، وهو يترجم له ، عندما قال – وهو يعدد أوصافه – : « . . . . . وشيخ الصوفية»[1] . . وتناقل الذين كتبوا عن التوحيدى هذا الوصف دون تحقيق – فى التراجم القديمة – واستنادا – فى بعض الدراسات المعاصرة – إلى كتابه (الإشارات الإلهية) – الذى تشيع فيه الأدعية الصوفية . .

لكننا نلاحظ أن ياقوت الحموى ، الذى وصف التوحيدى بأنه «شيخ الصوفية» ، هو ذاته الذى تحدث عنه باعتباره «رئيس جماعة من المتسولين – الساسانية» ! . . كما وصف خُلق التوحيدى بالأوصاف التى تنفى عنه أية علاقة بحقيقة التصوف والصوفية الحقيقيين – فضلا عن أن يكون شيخهم – وذلك عندما قال كلماته المعبرة : « . . وكان التوحيدى **مجبولا على الغرام بثلب الكرام**» !! . . ثم إنه – ياقوت – هو الذى حكى من علاقات التوحيدى بالدنيا ومتاعها والحياة وعَرَضها ما يتناقض كل التناقض وأشده مع نهج الصوفية والمتصوفين ! . .

فما هى حقيقة هذا الموضوع ؟! . .

لو كان التوحيدى شيخا للصوفية ، أو حتى من أهل التصوف ، لترجمت له كتب الطبقات التى ترجمت للصوفية . . لكن هذه الكتب قد خلت تماما من أى ذكر لأبى حيان . .

ثم إن أخلاق الرجل وصفاته ، التى وصفه بها واحد من أبرز

(١) (معجم البلدان) جـ ١٥ ص ٥ .

علماء عصره ، وهو الشيخ أبو الوفاء المهندس البوزجانى – الذى أحسن إلى التوحيدى كما لم يحسن إليه أحد من عارفيه ، وصبر على خُلقه على حين انقلب عليه الكثيرون بسبب هذا الخُلق . . فالتقطه من أوساط الدهماء والمتسولين وعوام المنتسبين للصوفية ، فعينه حارسا للبيمارستان العضدى ، ثم قدمه إلى الوزير ابن سعدان ليكون مسامرا للوزير فى مجلسه ، وطلب منه تدوين هذه المسامرات – (الإمتاع والمؤانسة) – إن الصفات التى كان عليها التوحيدى ، والتى ذكرها له الشيخ أبو الوفاء – مواجهة فى عتاب قاس – وهى التى سلّم بها التوحيدى ولم ينكرها أو يجادل فى اتصافه بها ، كلها تنفى عن التوحيدى أية أهلية للتصوف وأية علاقة بأهل هذا الطريق . .

لقد كتب إليه أبو الوفاء المهندس ، عندما رآه يتنكر لليد التى أحسنت إليه – بعد أن أصبح مسامرا للوزير ابن سعدان – فقال له : **«أتظن بغَرَارتك - (غفلتك) - وغَمَارَتك - (جهالتك وبلاهتك) - وذهابك فى فُسُولتك - (ضعفك وخستك وقله مروءتك) - التى اكتسبتها بمخالطة الصوفية**[1] **والغرباء والمجتدين - (المتسولين للعطاء) - الأدنياء الأردياء، أنك تقدر على مثل هذا الحال - (التنكر للإحسان) - ، وأنام منك على حسن الظن بك»**[2] ؟!. .

ولم ينكر أبو حيان التوحيدى ، فى جوابه على رسالة الشيخ أبى الوفاء المهندس ، أيا من هذه الصفات التى وصفه بها – والتى تكفى واحدة منها لتنفى عنه أية علاقة بالصوفية والتصوف – . .

(١) وهذه الأوصاف دليل على أن المخالطة كانت للدهماء المحسوبين على الصوفية . إذ إن مخالطة الصوفية لا تثمر الخسة وقلة المروءة ! . .

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) جـ ١ ص ٧ .

وإنما زاد هذه الحقيقة تأكيدا عندما تحدث عن حبه لأغراض الدنيا ، وتعلقه بمظاهرها ، وحرصه على متاعها - الأمر الذى يباعد ويناقض بينه وبين التصوف وأهله - فقال : «**إن هذه العاجلة محبوبة، والرفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة، والدنيا حلوة خضرة، وعذبة نضرة.. وترك خدمة السلطان غير الممكن، ولا يستطاع إلا بدين متين، ورغبة فى الآخرة شديدة، وفطام عن الدنيا صعب[1]...» !!**

فهو يعلن تعلقه الشديد بزينة الحياة الدنيا ومتاعها ، وسعيه للمكانة عند الوزراء بكل حيلة وبكل قوة ، وافتقاره إلى الصوارف عن هذا الطريق - من «دين متين ، ورغبة فى الآخرة شديدة ، وفطام عن الدنيا» - ، وهى الصوارف التى تميز بها أهل الطريق . .

والتوحيدى لا يدع مجالا للشك فى «دنيوية منهاجه فى الحياة» . . فيصرح برفضه للاعتدال المتوازن الذى يتيح للإنسان التوسط الجامع بين الدنيا والآخرة ، ويكشف عن فكر غريب ينكر هذه الوسطية ، عندما يقيم تناقضا كاملا بين «الدنيوية» و «الأخروية» - فى الوقت الذى أفصح فيه عن عشقه لمتاع الدنيا وغرامه بمظاهرها - فيقول : «وربما قال بعض المتكلفين : قد قال بعض السلف : (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه) . وهذا كلام مقبول الظاهر ، موقوف الباطن . وربما قال آخر من المتقدمين : (اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا) . وهذا أيضا كلام مُنَمَّق ، لا يرجع إلى معنى محقق . أين هو من قول المسيح - عليه السلام - حين قال : الدنيا والآخرة

(٣٨) المصدر السابق . جـ١ ص ١٣ .

كالمشرق والمغرب ، متى بعد أحدكم من أحدهما قرب من الآخر ، ومتى قرب من أحدهما بعد من الآخر . وأين هو من قول الآخر : الدنيا والآخرة ضُرّتان ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى .

وهذا الانسان.. لا يستطيع أن يجمع بين شهواته، وأخذ حظوظ بدنه، وإدراك إرادته، وبين السعى فى طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه[1]»!!

فهل هناك علاقة بين هذا الموقف ، الرافض للاعتدال والوسطية والتوازن الجامع بين الدنيا والآخرة ، وبين موقف الصوفية الذين ولّوا وجوههم إلى الآخرة مديرين ظهورهم للدنيا ؟! . .

بل إن التوحيدى - الذى أفصح عن طلبه للمكانة عند الوزراء «بكل حول وقوة» - والذى كانت حياته ومأساته ثمرة لممارسته هذا الاتجاه - يتوسل إلى الشيخ أبى الوفاء المهندس توسلا يعف القلم عن وصفه بما يستحقه من أوصاف !! . . فيكتب إليه فى ختام كتاب (الإمتاع والمؤانسة) يقول له : «**...لم يبق فى هذه الجماعة على فقره وبؤسه، ومره ويأسه غيرى.. خَلّصنى أيها الرجل، من التكفف.. اشترنى بالإحسان، اعتبدنى بالشكر، استعمل لسانى بفنون المدح.. اجبرنى فإننى مكسور.. شَهِّرْنِى فإننى غفل، حلِّنِى فإننى عاطل.. سَرِّحنى رسولا إلى صاحب البطائح، أو إلى أبى السؤل الكردى، أو إلى غيره ممن هو فى الجبال، أو دَعْ لى ألف درهم، فإنى أتخذ رأس مال، وأشارك بقال المحلة فى درب الحاجب.. أو تَقَدّم إلى «كسج» البقال حتى يستعين بى فى بيع الدفاتر[2]...»!!!**

(١) المصدر السابق . جـ١ ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق . جـ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .

فهل هذه أخلاقيات ومقاصد وتطلعات الصوفية ، أهل الطريق ، من أية أمة أو دين ، فى أى زمان أو مكان ؟! . .

لقد كان التوحيدى «ناسخا . . ورّاقا» ، لكنه لم يقنع – ككثيرين من أعلام علماء عصره وغيره من العصور ، الذين عاشوا على التكسب من نسخ المخطوطات ، مع التعلم منها ، وتكوين المكتبات الزاخرة بالعلوم والفنون – فسمى هذه الحرفة (حرفة الشؤم) . . وسعى إلى «العاجلة المحبوبة ، والرفاهية المطلوبة ، والمكانة عند الوزراء ، وجمع الشهوات والحظوظ» ، حتى ولو كان ذلك بتزلف العبيد ، والمشاركة فى «بقالة بدرب الحاجب» – أو «بيع الدفاتر عند (كسج) البقال» ؟! . . بل حتى لو استدعى الأمر «**بيع الدين، وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه**[1]»!!..

ثم إن خُلُقه فى طلب المكانة عند الوزراء – «بكل حول وقوة»!– قد حال بينه وبين النجاح فى هذا الميدان ، فانتهت كل تجاربه مع الوزراء – من المهلبى (٢٩١ – ٣٥٢هـ) – وزير معز الدولة ، ببغداد . . إلى أبى الفضل ابن العميد (٣٦٠هـ) وزير ركن الدولة فى خراسان . . إلى ابنه أبى الفتح ابن العميد (٣٣٧ – ٣٦٦هـ) وزير ركن الدولة فى الرى . . إلى الصاحب بن عباد (٣٢٦ – ٣٨٥هـ) وزير مؤيد الدولة ، وفخر الدولة ، فى الرى . . الى ابن العارض أبى عبد الله الحسن بن أحمد بن سعدان (٣٧٥هـ) وزير صمصام الدولة فى بغداد . . إلى أبى القاسم المدلجى وزير صمصام الدولة فى شيراز – . . انتهت كل تجاربه مع جميع هؤلاء الوزراء بغضبهم عليه ، وفراره منهم ، وطلبهم إياه . . فلقد كان – كما قال ياقوت الحموى – : «مجبولا على الغرام بثلب الكرام» !! . . وفى

(١) المصدر السابق . جـ٢ ص ١٤٣ .

تأمل أبعاد هذه الكلمات التى اختارها ياقوت المفتاح لمأساة هذا الرجل ، الذى أراد استبدال لذات الدنيا – حتى لو اقتضت «بيع الدين وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه» – بالوراقة والنسخ – التى سعد بها كثير من أعلام العلماء – على حين سماها هو «حرفة الشؤم . . وتكرار ما فى الكتب[1]»!! . .

فهل هذا منهاج صوفى؟ . . وهل هذه هى طريق المتصوفين من أهل الله ؟!! . .

لقد طلب التوحيدى المكانة عند الوزراء ، حتى ولو كان ذلك – كما قال – «ببيع الدين وإخلاق المروءة» . . وكان فى طلبه لهذه المكانة رهن إشاراتهم فى كل شىء . . . حتى أن الوزير ابن سعدان ، يطلب إليه فى إحدى الليالى أن يخوض به فى بحر الخلاعة والمجون ، فيقول له : «**تعال نجعل ليلتنا هذه مجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر.. فهات ما عندك**» فتكون حصيلة أبى حيان أحد عشرة صفحة من المجون الداعر والدعارة الماجنة . . حبذا لو تأملها الذين يتحدثون عن مشيخة التوحيدى للصوفية فى العصر الذى عاش فيه[2] ! . .

أما كتاب (الإشارات الإلهية) – الذى يستدل به البعض على تصوفه – فإن من دارسى التصوف من يشكك فى نسبته إلى التوحيدى ، انطلاقا من مجافاة منهجه فى الحياة لما تعارف عليه أهل التصوف[3] . . فالتصوف «تجربة حياة» . . وليس نظريات تكتب ولا كلاما يقال ! . .

(١) المصدر السابق . جـ٢ ص ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق . جـ٢ ص ٥٠ – ٦٠ .

(٣) د . يوسف زيدان «التوحيدى والصوفية» – مجلة (الهلال) عدد نوفمبر سنة ١٩٩٥م .

وهل أحرق التوحيدى كُتبه؟:

فى رسالة جوابية ، كتبها التوحيدى إلى القاضى أبو سهل على ابن محمد - وحفظها ياقوت الحموى - تحدث أبو حيان عن إحراقه كتبه ، وبرر هذا الإحراق ، وهو يرد على اعتراضات القاضى أبى سهل . . وتاريخ هذه الرسالة شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ - إبريل - مايو سنة ١٠٠٩م .

ولقد فهم السيوطى - خطأ - أن هذه الكتب التى أحرقها التوحيدى هى «مؤلفاته . . ومصنفاته» ، و «اجتهد» للتوفيق بين هذا الفهم وبين وجود مؤلفات ومصنفات للتوحيدى ، فقال : «ولعل النُسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه فى حياته ، وخرجت عنه قبل حرقها[1] . .» . . ومنذ ذلك التاريخ ، ظل الذين يكتبون عن التوحيدى يسوقون هذا الفهم الخاطئ - بل الوهم الذى لا ظل له من الحقيقة - كدليل على إدانة عصر التوحيدى - الذى ألجأ هذا المؤلِّف إلى إحراق ثمرات عقله[2] - بل واتخذ نفر من منحرفى الهوية من هذا «الفهم - الوهم» دليل إدانة للحضارة التى ضاقت بعبقرية أبى حيان ! . . مع أن الرجل قد عاش فى عصر ازدهار الفكر الحر ، والحرية الفكرية ، التى جعلت مصنفاته «معرضا» لمختلف المذاهب والمقولات والمقالات ! . .

ولعلنا - فى هذا المقام - نكون أول من يعرض لهذا «الفهم - الوهم» بالتحقيق والتفنيد . . **إن الكتب التى أحرقها أبو حيان هى**

(١) (بغية الوعاة) ص ٣٤٩ .

(٢) شتيرن (دائرة المعارف الإسلامية) - مادة «أبو حيان التوحيدى» - الطبعة العربية الثانية - دار الشعب القاهرة .

«مكتبته» وليست «مؤلفاته ومصنفاته» . . «مكتبته» التى «جمعها» ، وليست كتبه التى «ألفها وصنفها» . . وهى إحدى مكتبات مرحلة من مراحل حياته ، جمعها فى العشرين عاما التى سبقت سنة ٤٠٠هـ أى بعد فشل تجاربه فى طلب المكانة عند الوزراء . . وهو قد أحرقها لأنه ليس له من الولد والأهل من يرث هذه المكتبة الجامعة ، التى جمعها هذا «الناسخ . . الوراق» العظيم . . وأصحاب «المكتبات» يتركون مكتباتهم للورثة ، أما مؤلفاتهم فإنهم يؤلفونها للناس ، وليس للوارثين ! . .

ولقد اقتدى أبو حيان ، فى إحراق مكتبته ، بعدد من الذين سبقوه إلى هذا الصنيع - من علماء عصره - وليس منهم من ضاعت مؤلفاته بإحراقه لها ، كما أن حديث التوحيدى عن صنيعهم هذا - كما سنرى فى نص رسالته - قاطع بأن الكلام إنما هو عن إحراق «المكتبات» ، وليس عن إحراق «المؤلفات والمصنفات» . .

ثم إن وجود مؤلفات ومصنفات التوحيدى - والتى لم يفقد منها إلا كتاب واحد - شاهد على صدق هذا الذى نقول ! . .

يتحدث التوحيدى - فى رسالته إلى القاضى أبى سهل - عن الكتب التى أحرقها ، فيقول : «. . **إحراق كتبى النفيسة**» . . والمرء لا يصف مؤلفاته بالنفاسة ، وإنما يترك ذلك للآخرين . . ويتحدث عن سبب هذا الإحراق فيقول : «ومما شحذ العزم على ذلك . . **أنى فقدت ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ، وصاحبا قريبا ، وتابعا أديبا ، ورئيسا منيبا . . فشق على أن أدعها لقوم . . جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد**» . . وليس هناك فى الدنيا من يؤلف لابنه أو صديقه أو صاحبه . . وإنما يؤلف المؤلفون للناس ، مطلق الناس ، ولأنهم لابد وأن يسطروا أفكارهم على الأوراق ! . . فالرجل هنا يتحدث عن إحراق مكتبته النفيسة ، لأنه لم يكن لديه وارث يورثه إياها . .

ثم هو يضرب الأمثال بمن اقتدى بهم فى هذا العمل ، فيضع أيدينا على ما يؤكد أن المراد هو إحراق «المكتبات» لا إحراق «المؤلفات» . . فيقول : « . . وبعد ، فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يُقتدَى بهم . . منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء ، **دفن كتبه فى باطن الأرض** ، فلم يُوجد لها أثر . وهذا داود الطائى . . ويقال له : تاج الأمة ، **طرح كتبه فى البحر** ، وقال يناجيها : **نعم الدليل كنتِ ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول** . وهذا يوسف بن أسباط ، **حمل كتبه إلى غار فى جبل ، وطرحها فيه ، وسد بابه** ، فلما عوتب فى ذلك قال : **دلّنا العلم فى الأول ، ثم كاد يُضلنا فى الثانى** ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل من أردناه . وهذا أبو سليمان الدارانى ، **جمع كتبه فى تنور وسجَرها بالنار ثم قال : والله ما أحرقتك حتى كدتُ أحترقُ بك** ! . وهذا سفيان الثورى ، **مزق ألف جزء وطيرها فى الريح** ، وقال : ليت يدىّ قطعت من هاهنا ، بل من هاهنا ، ولم أكتب حرفا . وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافى ، سيد العلماء ، قال لولده محمد : لقد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار[1] . . »

وجميع هؤلاء الأعلام ، الذين اقتدى بهم التوحيدى فى إحراق «مكتبته» ، قد أحرقوا أو دفنوا أو أغرقوا «مكتباتهم» وليس «مؤلفاتهم ومصنفاتهم» . .

فأبو عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤هـ ، ٦٨٩ - ٧٧٠م) «قد رَوَى عن العرب الفصحاء **كتبا ملأت بيتاله إلى قريب السقف** واتفق له أن تنسك ، فأخرج هذه الكتب وأحرقها - أو دفنها فى باطن الأرض

(١) (معجم الأدباء) جـ ٥ ص ١٧ - ٢٢ .

- فلما رجع إلى علمه الأول ، لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه » . .

ولقد ذكر له ابن النديم - فى (الفهرست) - كتابا فى القراءات ، وعدة كتب أخذت عنه ، منها (كتاب النوادر عن أبى عمرو بن العلاء) و (كتاب قراءة أبى عمرو ، لابن مجاهد) و (كتاب ما خالف فيه ابن كثير أبا عمرو) لابن شنبوذ ، و (كتاب الفصل بين أبى عمرو والكسائى) و (كتاب الخلاف بين أبى عمرو والكسائى) لأبى طاهر عبد الواحد البغدادى . . وله متفرقات ، فى الشعر والشعراء ، واللغة ، والنحو ، متفرقة فى كتب الأدب والطبقات[1] . .

فالذى أحرقه أبو عمرو بن العلاء هى «المكتبة التى ملأت بيتا إلى قريب السقف» ، وليست المؤلفات والمصنفات . .

وتاج الأمة ، داود الطائى ، قد طرح فى البحر - عندما تنسك وتصوف - الكتب التى اتخذها «دليلا» فكريا له ، وذلك بعد أن «وصل» إلى «الحق» - سبحانه وتعالى - ولم تعد له حاجة إلى «الدليل» . . **ومعنى هذا أن الحديث إنما كان عن الكتب التى كان يستدل بها ويرجع إليها ، وليس عن المؤلفات والمصنفات . .**

وما تخلص منه يوسف بن أسباط كان «مكتبته» ، التى احتاجت إلى «غار فى جبل ، طرحها فيه ، وسد بابه» - وليس هذا بالوصف لمؤلفاته ومصنفاته . . ثم هو - عندما عوتب فى ذلك - تحدث عن أنه إنما دفن «الدليل» ، أى المراجع والمصادر ، وليس المؤلفات التى ألفها . .

والذى مزقه سفيان الثورى ، وطيّره فى الريح ، هو «مكتبته» ، التى بلغت عدة أجزاء كتبها ألف جزء . . ولم يقل : عاقل : إن هذا هو رقم المؤلفات التى صنفها هذا الفقيه ! . .

فحديث التوحيدى إنما هو عن إحراق «مكتبته» لافتقاره لوارث

(١) (دائرة المعارف) لفؤاد أفرام البستانى . طبعة بيروت سنة ١٩٦٢م .

يرثها ويحافظ عليها.. وليس عن مؤلفاته ومصنفاته.. والشواهد التى ساقها قاطعة بأن هذا هو المراد..

ثم إن الحصر الدقيق لمؤلفات التوحيدى - والذى قام به واحد من أبرز المتخصصين فيه - تأليفا وتحقيقا - وهو الدكتور إبراهيم الكيلانى - يقول لنا: إن عناوين هذه المؤلفات قد بلغت خمسة وعشرين عنوانا، المحفوظ بين أيدينا الآن منها اثناعشر كتابا، هى أهم وأكبر مؤلفاته، ومنها اثناعشر كتابا اطلع عليها المؤرخون وكتاب التراجم بعد عصر التوحيدى، وأثبتوا فى كتبهم الكثير من صفحاتها.. وليس مفقودا من عناوين هذه المؤلفات إلا كتاب (النوادر) - الذى ذكره التوحيدى فى (المقابسات)[1]... فمؤلفات الرجل لم تحرق.. وكانت سعيدة الحظ عندما نجا معظمها من عاديات الدهر، وما فقد منها كان فقده فى عصور متأخرة، بعد أن اطلع عليها عدد من الكتاب والمؤرخين.. ولعل بعض هذه المصنفات «المفقودة» أن يكون ضمن مالم يفهرس ولم ينشر من ملايين المخطوطات..

هكذا أثمر «الوعى» بنصوص التوحيدى ذاته تبديد كثير من «الأوهام» التى توارثها الخلف عن السلف، حول «عقيدة التوحيدى»، و «مذهبه» وحول ما صنف وألّف من آثار...

(١) د. إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٣٧ - ٥١.

مكانة التوحيدى بين «الرواية» و «الإبداع»:

إن مفتاح فهم المكانة الحقيقية للتوحيدى، بين معاصريه، وفى تراثنا العربى الإسلامى، هو إدراك «الحرفة» التى احترفها، و«الموهبة» التى امتلكها. فلقد كان الرجل «ناسخا.. ورّاقا»، أتاحت له حرفته هذه أن يعيش فى كنوز الفكر ويطلع على ثمرات العقول، ويعايش أكابر العلماء والمبدعين فى مختلف العلوم والفنون، ومن كل الفلسفات والديانات... وكان صاحب موهبة أدبية وملكة فنية، أعانته على التقاط الجواهر من بطون الكتب وأفواه العلماء، بل واستخراجها بالأسئلة التى كان يثيرها ويلقيها على كثير من هؤلاء العلماء المبدعين.. وعلى أن يصوغ الكثير من هذه الأفكار بالأسلوب البلاغى الذى اقتفى فيه أثر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ، ٧٨٠ - ٨٦٩م).. فهو «راوية.. محقق»، ينسب الأفكار لأصحابها، وينبه على مواطن إضافاته واستنباطاته.. ومواطن الرواية والنقل والإملاء، على نحو يجعل منه «محققا» بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح، أكثر مما هو «مبدع ومبتكر وخلاق»!

أما مأساة الرجل، فهى خُلُقه، الذى جعله يتمرد على حرفة «النسخ.. والوراقة» - وهى التى عاش منها أعلام كثيرون - منهم الجاحظ.. والسيرافى.. وأبو على مسكويه.. وياقوت الحموى - وتطلّعه إلى صحبة الأمراء والوزراء، «كعالم - مبدع»، وليس «كناسخ - ورّاق»!..

ذلك هو مفتاح فهم حقيقة مكانة التوحيدى.. وسبب المأساة التى صاحبته، كظله، حتى انتقل إلى رحمة الله ..

كان الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥هـ، ٩٣٧ - ٩٩٥م) أبرز وزراء عصره، ومن أبرز أدباء وعلماء ذلك العصر أيضا، وكانت له رعاية للعلم والعلماء.. ولقد دخل أبو حيان التوحيدى إلى محيط

الصاحب كناسخ لرسائل الصاحب ومؤلفاته ، وللمخطوطات التى يريد ضمها إلى مكتبته . . وعندما أراد التوحيدى القيام – بالنسبة للصاحب – بدور «الناقد» صاحب «الرأى» ، الذى ينظر فى مؤلفات ابن عباد ، ويختار منها ، فتطلّع إلى دور غير دور «الناسخ – الوراق» كانت غضبة الصاحب عليه ، وتوعده إياه . . فهرب التوحيدى من دائرة نفوذه ، ونجا بنفسه ، تاركا حتى أجره على ما نسخ من مخطوطات ! . .

والتوحيدى يحكى هذا السبب لغضب ابن عباد عليه ، فيقول : إن خادم الصاحب بن عباد ، وناظر خزانة كتبه «نجاح» قد جاء إلى التوحيدى «بثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب ، وقال :

– يقول لك مولاى : انسخ هذا ، فإنه قد طُلب منه بخراسان .

– فقلت – بعد ارتياع – (من ضخامة المجلدات الثلاثين المراد نسخها!) – : هذا طويل ، ولكن لو أذن لى لخَرَّجْتُ منه فِقَرًا كالغرر ، وشذورًا كالدرر . .»

أى أن التوحيدى أراد الانتقاء من كتابات ابن عباد ، موحيا أن فيها ما يستحق النسخ والإبقاء عليه وفيها ماليس بغرر ولا درر . .

ثم يواصل التوحيدى رواية الواقعة فيقول : «فرفع – (الخادم نجاح) – الأمر إليه – وأنا لا أعلم ، فقال – (الصاحب) – :

– طَعَن فى رسائلى وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزْرَى بها ، والله لينكرن منى ما عرف ، وليعرفن حظه إذا انصرف . .» ثم يعلق التوحيدى على غضب الصاحب ، فيقول :

– «حتى كأنى طعنت فى القرآن ! . .»[1]

(١) (مثالب الوزيرين) ص ٣٢٥ . انظر : د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص١٠٢ ، ١٠٣ .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت مأساة أبى حيان مع الصاحب بن عباد ، لأنه تطلع إلى ماهو أرقى من وظيفة «الناسخ الوراق» ! . . وبدأ هجاء التوحيدى للصاحب ، وشرع قلمه – الذى كان ريشة فنان – يصور للصاحب الصور التى شوهت صورته . . والتى عناها ياقوت الحموى عندما وصف أبا حيان بأنه كان «مجبولا على الغرام بثلب الكرام . .» ! . . ولقد هرب التوحيدى من دائرة سلطان الصاحب – فى الرّى – وعاد إلى بغداد ، متحدثا عن سوء معاملة الصاحب له ، و «الحرمان المر ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقدع – (الزجر) – المؤلم ، والمعاملة السيئة ، **والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولفظة**[1] . .» !

وفى بغداد لقى الشيخ أبا الوفاء المهندس – وكان مقدما فى العلوم الطبيعية – فعينه حارسا فى «البيمارستان العضدى» ، ثم رشحه لنسخ (كتاب الحيوان) للجاحظ ، بطلب من الوزير ابن سعدان ، قائلا له : إن الوزير «استكتبك (كتاب الحيوان) لأبى عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفرك على تصحيحه[2] » . . فبدأت علاقته بابن سعدان «ناسخا ورّاقا» ، ثم استدعاه من حراسة البيمارستان ، ليكون – مع النسخ والوراقة – مسامرا للوزير . .

ويشهد الشيخ أبو الوفاء المهندس البوزجانى – فى حواره مع التوحيدى – مع تسليم التوحيدى بهذه الشهادة – وأبو الوفاء واحد من القلة الذين أحسنوا إلى التوحيدى ، ولم ينقلب عليهم أبو حيان بالهجاء ! – يشهد الشيخ أبو الوفاء على أن مكانة التوحيدى

(١) (الإمتاع والمؤانسة) جـ١ ص ٣ ، ٤ .

(٢) المصدر السابق . جـ١ص ٥ .

كـانت - أولا وفى الأسـاس وقـبل أى شىء آخـر - هى مكانة «الناسخ الوراق» ، الذى حباه الله ملكة أدبية وفنية وبلاغية أتاحت له ذوقا وتذوقا لاختيار الجياد من النصوص والروايات والمأثورات التى ينسخ مخطوطاتها ، وأنه لم يكن من علماء تلك الفنون التى روى عن أعلامها فيما سامر به أو صنفه من مصنفات . .

ففى رسالة كتبها أبو الوفاء إلى التوحيدى - وأثبتها التوحيدى ، مصدقا على ما جاء فيها - ينبهه وهو يوصيه بتدوين مسامراته مع الوزير ابن سعدان ، ينبهه إلى أنه ليس من علماء البلاغة والإنشاء ، فيقول له : «**وكُن من أصحاب البلاغة والإنشاء فى جانب،** فإن صناعتهم يُفْتَقَرُ فيها أشياء يُؤاخذ بها غيرهم ، **ولست منهم، فلا تتشبه بهم، ولا تجرِ على مثالهم، ولا تنسج على منوالهم، ولا تدخل فى غمارهم** ، ولا تُكَثِّر ببياضك سوادهم ،**ولا تُقابل بفكاهتك براعتهم،** ولا تجذب بيدك رشاءهم ، ولا تحاول بباعك مطاولتهم ، **واعرف قدرك تسلم، والزم حدّك تأمن** ، فليس الكَوْدَن - (الفرس الهجين) - من العتيق - (الكريم) - فى شىء» !

وفى جواب التوحيدى على رأى أبى الوفاء هذا ، يعترف بأن هذا الكلام هو «ما يُعْرَف الحق فيه ، ويستبين الصواب منه . . وهو كلام المرشد الناصح[1] . .» ! . .

ومع إحسان أبى الوفاء المهندس إلى التوحيدى . . شعر أبو الوفاء بخيانة التوحيدى لعهده ، ظنا منه أن علاقته بالوزير ابن سعدان تغنيه عن الوفاء لمن أحسن إليه وأوصله إلى هذا المقام . . فكتب أبو الوفاء إلى التوحيدى يذكره بمكانته ووظيفته ، ويحذره من تجاوزه قدره وتعديه حدوده . . فقال مخاطبا إياه : «إنك تخلو بالوزير ،

(١) المصدر السابق . جـ١ ص ١٠ ، ١١ .

ليالى متتابعة ومختلفة ، فتحدثه بما تحب وتريد ، وتلقى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقعة بعد الرقعة ، **ولعلك فى عُرْض ذلك تعدو طورك بالتشدق ، وتجوز حدّك بالاستحقار، وتتطاول إلى ماليس لك، وتغلط فى نفسك، وأنت غِرٌ لا هينة لك فى لقاء الكبراء، ومجاورة الوزراء، وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك، وإلى مران سوى مرانك، ولبسة لا تشبه لبستك.. والعجب أنك، مع هذه الخِلّة، تظن أنها مطوية عنى، وخافية دونى، وأنك قد بلغت الغاية وادع القلب، وملكت المكانة ثانى العنان، وقد انقطعت حاجتك عنى وعمن هو دونى، ووقع الغنى عن جاهى وكلامى ولطفى وتوصيلى، وجهلت أن من قدر على وصولك، يقدر على فصولك - (خروجك) - وأن من صعد بك حين أراد، ينزل بك إذا شاء، وأن من يُحسن فلا يُشكَر، يجتهد فى الاقتصاد حتى يُعْذَر.. أتظن بغرارتك - (غفلتك) - وغمارتك - (جهلك وبلاهتك) - وذهابك فى فسولتك - (خستك وقلة مروءتك) - التى اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء، أنك تقدر على مثل هذه الحال، وأنام منك على حسن ظن بك؟!.. هيهات[1] !!»**

ففى هذا «العتاب - المنذر» و «الإنذار - المعاتب» تنبيه للتوحيدى على مكانته ، ودعوة له كى لا يتجاوز قدره . . «اعرف قدرك تسلم ، والزم حدك تأمن» ! . .

فما كان من التوحيدى إلا أن أجاب أبا الوفاء : «أنت مولى وأنا عبد ، وأنت آمر وأنا مؤتمر ، وأنت مُمْتَثِلٍ وأنا مُمْتَثِل ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة ، وأنت مُنشِئ وأنا مُنَشأ ، وأنت أولَ وأنا آخر ، وأنت مأمول وأنا آمل[2] . .» !! . . فعاد أدراجه إلى موقع «المسامر» «المفاكه» «الناسخ . . الوراق» . .

(١) المصدر السابق . جـ١ ص ٥ - ٧ .
(٢) المصدر السابق . جـ١ ص ٨ .

وفى مسامرة بين الوزير ابن سعدان والتوحيدى ، سأله الوزير :
- «لِمَ لا تُداخل صاحب ديوان ، ولِمَ ترضى لنفسك بهذا اللّبوس؟!
- فقَلْتُ - (التوحيدى) - : أنا رجل حب السلامة غالب علىّ ، والقناعة بالطفيف محبوبة عندى .
- فقال - (الوزير) - : كَنَّيْتَ عن الكسل بحب السلامة ، وعن الفسولة - (الخسة) - بالرضا باليسير .
- قلت - (التوحيدى) - : إذا كنتُ لا أصل إلى السلامة إلا بالفسولة ، ولا أَتَطَعَّمُ الراحة إلا بالكسل ، فمرحبا بهما[1] . .»!!

وهو اعتراف من أبى حيان بموقعه ومكانته وقدراته فى الأوساط الاجتماعية التى عاش فيها . وإذا كان الرجل قد مدّ عينيه إلى ما وراء مكانة «الناسخ الوراق» ، فلقد كان هذا حقه الذى تؤهله له قدراته الأدبية والفنية والبلاغية . . لكن يبدو أن خُلُقه هو الذى حال بينه وبين احتلال مكانته بين العلماء! . .

والقارئ للتوحيدى يحترم أمانة الرجل عندما ينسب الآراء التى ينقلها والمأثورات التى يرويها والأفكار التى يسامر بها والنصوص التى يؤلف بينها إلى أصحابها . . بل وينبه على أنه ليس من أهل الفلسفة - وهو قد جمع فيها مؤلفات - فهو يصف عمله فى كتاب (المقابسات) - وهو ديوان فى فلسفة عصره - بأنه «تصنيف أشياء من الفلسفة ، رويتها عن مشائخ العصر الذى أدركته والزمان الذى لحقتهم فيه[2] . .» . . «فالفلسفة موقوفة على أصحابها ، لا نزاحمهم عليها ، ولا نماريهم فيها[3] . .»

(١) المصدر السابق . جـ١ ص ١٠٤ .
(٢) (المقابسات) ص ٥٤ .
(٣) (الصداقة والصديق) ص ٥٦ .

بل إن الناظر فى آثار أبى حيان ، لا يحتاج إلى كبير جهد ليدرك أنه أمام روايات ناسخ وراق ، وجامع محقق ، وصيرفى نقاد جيد الاختيار ، أكثر مما هو بإزاء مبدع مبتكر - وهى حقيقة لا ندرى كيف غفل عنها جمهرة دارسيه ؟!- . . . الأمر الذى يستوجب «نظرة ميدانية» فى صفحات هذه الآثار ، تقيم الدليل المادى على هذه الحقيقة ، إسهاما فى وضع الرجل بمكانه الحقيقى بين أعلام التراث . .

كتاب الإمتاع والمؤانسة:

فى هذا الكتاب – الذى هو من أكبر كتبه – والذى تبلغ الصفحات المطبوعة لأجزائه الثلاثة قرابة السبعمائة صفحة – تمتلئ صفحات الكتاب بأسماء وصفات أصحاب النصوص والأفكار التى رواها ونقلها واختارها التوحيدى . . **والتى تكوّن نحوا من ٩٠٪ من صفحات هذا الكتاب** . . . فهذه الصفحات مليئة بقول التوحيدى :

«قال الأول . . وقال ذو الرمة . . وقد أجاد القطامى فى قوله . . وقال بعض السلف . . ثم رويتُ أن عبد الملك بن مروان قال . . وقال عمر بن عبد العزيز . . وسمعت أبا سعيد السيرافى يقول . . وقال سليمان بن عبد الملك . . وحدّثنا ابن سيف الكاتب الراوية قال . . وقال أبو سليمان السجستانى . . وقال لى الدارقطنى . . وحدثنا النصرى أبو عبد الله . . ثم قرأتُ عليه – (الوزير ابن سعدان) – نوادر الحيوان ، وغرائب ما كنتُ سمعته ووجدته . . وأنشدته لأعرابى قديم . . وقال بعض الفلاسفة . . وقد أملى علينا أبو سليمان كلاما فى حديث النفس ، هذا موضعه ، قال . . وسألت أبا سليمان عن السكينة ، ما هى؟ فقال . . وحكيتُ عن ابن يعيش الرقى فصلا سمعته يقوله – فى الممكن – لا بأس برسمه فى هذا الموضع . . وقال جرير . . وقال فيلسوف يونانى . . وقال أفلاطون . . وقال أوميروس . . وقال انكساغورس . . وقال ديوجانس . . وقال سقراط . . وقال مقاريوس . . وقيل لفيثاغورس . . فقال . . وحكى لنا أبو سليمان أن أرسطو طاليس كتب . . وقيل لاسقلبيوس . . فقال . . وقال غالوس . . وذكر للاسكندر . . فقال . . وقال أبقراط . . وقال أبو الحسن العامرى . . وقال الحكماء الأولون . . وقال أبو الأسود . . وقال ابن الكلبى . .

وقال عمر بن الخطاب . . وقال صاحب التاريخ . . وهذا آخر ما كتبتُ عن على بن عيسى الرمانى . . وقال الوزير – (ابن سعدان)– : هات ، قلتُ : إن الكلام فى النفس صعب . . وأنا آتى بما أحفظه وأرويه . . قال بعض الفلاسفة . . وقال الوزير : ما تحفظ فى تَفَعَال وتفعَال؟ . . قلتُ : قال شيخنا أبو سعيد السيرافى الإمام . . ورسَم (الوزير) – بجمع كلمات بوارع ، قصار جوامع ، فكتبتُ إليه أشياء كنت أسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مر الأيام فى السفر والحضر . . من ذلك . . وقال – (الوزير) – ليلة : أحب أن أسمع كلاما فى مراتب النظم والنثر . . فكان الجواب : أقول ما وعيته عن أرباب هذا الشأن ، والمنتمين لهذا الفن . . وجرى مرة كلام عن الممكن ، فحكيتُ عن ابن يعيش الرقى فصلا سمعته يقوله ، لا بأس برسمه فى هذا الموضع ، قال . . وقال – (الوزير) – مرة أخرى : اكتب لى جزءا من الأحاديث الفصيحة المفيدة . . فكتبتُ : قال مالك بن عمارة اللخمى . . وقال القعقاع بن عمرو . . وقال عتبة ابن المنذر السلمى . . وقال جعفر بن أبى طالب . . وسأل – (الوزير) – مرة عن المُغَنِّى إذا راسله آخر لِمَ يجب أن يكون ألَذّ وأطيب وأحلى وأعذب ؟ . . فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال فى جواب هذه المطالب . . وقال– (الوزير) – : فما للعقل فى ذلك؟ . . قلتُ : قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان فى مذاكرته لابن الخمار . . وذكر . . وجرى حديث الفيلة ليلة . . فحكيتُ أن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا . . وقال – (الوزير) – : سراويل ، يُذَكّر ؟ أم يُؤَنّث ؟ ويصرف أم لا ؟ . . فكان الجواب : إن على بن عيسى حدثنا عن شيخه ابن السراج قال . . هكذا قال لنا السيرافى ، وقد قرأت عليه هذه الفقر كلها ، وإنما جمعتها للوزير بعد إحكامها وروايتها . . قال – (الوزير) – : ما أحسن ما جمعت

وأتيت به . . فقلتُ : أيها الوزير ، عندى فى هذا – (السؤال عن سياسة العامة) – جوابان : أحدهما ما سمعت من شيخنا أبى سليمان . . والآخر ما سمعته . من شيخ صوفى . . ثم ناولنى – (الوزير) – رقعة فيها مطالب – (أسئلة) – نفيسة ، تأتى على علم عظيم ، وقال : باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير ومن تعلم أن فى مجاراته فائدة . . وحَصل ما يجيبك به ، ولَخصْه ، وزنه بلفظك السهل وإفصاحك البين . . فعرضتها كما رسم على أبى سليمان ، وقرأتها عليه . . فقال كلاما كثيرا واسعا ، وأنا أحكيه على وجهه عن طريق المعنى ، وإن انحرفت عن أعيان لفظه وأسباب نظمه ، فإن ذلك لم يكن إملاء ولا نسخا ، وأجتهد أن ألزم متن المراد ، إن شاء الله . . وقال – (الوزير) – كان عيسى بن زرعة سرد علىّ أشياء فى الخُلق . . وينبغى أن تزوره ، وتبعثه على إعادة حدودها ، وإشباع القول فيها ، مع إيجاز . . فلقيتُ عيسى ، وعرّفته الحديث ، فأملى ما رسمته فى هذا الجزء ، وعرضته على أبى سليمان ، فرضيه بعض الرضا ، ولم يسخط كل السخط . . قال . . هكذا قال لنا السيرافى ، وقد قرأت عليه هذه الفقرة كلها ، وإنما جمعتها للوزير بعد إحكامها وروايتها ، فقال الوزير : ما أحسن ما جمعت وأتيت به . . وقال الوزير : حدّثنى عن اعتقادك فى أبى تمام والبحترى؟ فكان الجواب : إن هذا مختلف فيه ، لكن حدثنا أبو محمد العروضى عن أبى العباس المبرد قال : سألنى عبد الله بن سليمان عن أبى تمام والبحترى ، فقلتُ . .

إلى آخر هذه الشواهد التى امتلأت بها صفحات أجزاء (الإمتاع والمؤانسة) ، والتى أطلنا فى إيراد نماذج – مجرد نماذج – منها ، لتضع يدنا على حقيقة مكانة التوحيدى : الناسخ . . الوراق . . الراوية . . المحقق . . أكثر منه صاحب الإبداع والابتكار . .

وكتاب المقابسات:

وإذا كان تسعة أعشار (الإمتاع والمؤانسة) نُقول وروايات واختيارات.. فإن (المقابسات) يكاد أن يكون كله من هذا القبيل.. فهو مقابسات فلسفية، جمعها التوحيدى، الذى يعترف بأنه لا علاقة له بهذا الفن، إذ هى - بعبارته - : «تصنيف أشياء من الفلسفة، رويتها.. عن مشائخ العصر الذى أدركته والزمان الذى لحقتهم فيه.. أقبلتُ أتألف ما شرد منها، وأنظم ما انتثر منها، وأُرقّع بجهدى وطاقتى شملها، وأحلّى بوسعى عطلها[1].. والفلسفة موقوفة على أصحابها، لا نزاحمهم عليها، ولا نماريهم فيها[2]..»

وإذا كانت «الدراسة الميدانية» هى الشاهد المادى على صدق هذا الذى نقول ، فإن صفحات المقابسات لا تعدو أن تكون نقولا منسوبة إلى أصحابها ، رواها ودونها أبو حيان . .

ففى المقابسة الأولى : «سمعتُ أبا سليمان المنطقى يقول . .» وفى الثانية : «هذه المقابسة دارت فى مجلس أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى . . فاستخلصتها جهدى . . وهذا آخر ما نقلتُ من حكاية هذه المقابسة . .» . . وفى الثالثة : «جرى عند ابن سعدان يوما كلام فى الأخلاق ، وحضر جماعة منهم . . فكان محصول ذلك . . وكان فى كلامهم قشر كثير حصلت خالصه وزبدته . .» وفى الرابعة عشرة : «قال يحيى بن عدى ، فى درس البديهى عليه سنة إحدى وستين وثلثمائة ، وأنا حاضر . . ودخل أبو العلاء صاعد الكاتب وانقطع الكلام ، وفات أن نبلغ

(١) (المقابسات) ص ٥٤ ، ٥٦ .
(٢) (الصداقة والصديق) ص ٥٦ .

أقصى ما عنده . .» وفى السادسة عشرة : « . . والله لقد تعبتُ فى تحصيل ما قالوه ، وخاطرتُ الآن برواية ما تقابسوه . .» . . وفى التاسعة عشرة : «هذا ما خلص من هذا الاجتماع ، أتيت به على ما ألفيته . .» وفى الخامسة والعشرين : « . . وكان كلام أبى سليمان أكثر من هذا ، ولكن إلى هاهنا بلغ حفظى ، وانتهى تتبعى . .» . . وفى الثالثة والثلاثين : « . . وأطال إطالة شذر بها عنى أكثر قوله . .» . . وفى الرابعة والعشرين : «سألنى أبو سليمان يوما عن الطبيعة ، وكيف هى عند أهل النحو واللغة ، أهى فعيلة بمعنى فاعلة؟ أو بمعنى مفعولة؟ فقلت : أكره أن أرتجل الجواب . . وأنا أسأل شيخنا أبا سعيد السيرافى . . فهو اليوم عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الأرض . . فسألت أبا سعيد ، فقال . .» . . وفى الرابعة والثلاثين : « . . ومحصولى من ذلك ما سمعته الآن . .» . . وفى الخامسة والثلاثين : «وأطال - أبو سليمان السجستانى - فى هذا الفصل ، وعلقت من جميعه قدر ما قررته فى هذا المكان» . . وفى المقابسة الأربعين : «قال أبو زكريا الصيمرى . . وكان كلامه أطول من هذا وأشفى ، وهذا حاصل منه . . .» . . وفى الحادية والأربعين : « . . وإنما عزوت ذلك كله إلى هؤلاء الأعلام . . من غير أن أستبد بشىء عليهم ، إلا بما لا بال به . .» . . وفى الرابعة والأربعين : « . . رأيت أفاضل من الفلاسفة . . وقد اقتبست منهم ما رسمته فى هذا المكان . .» . . وفى الخامسة والأربعين : « . . فرأيت أبا سليمان فى المنام ، فسألته عن الحال التى قد شغلتنى ، فقال فى الجواب قولا متقطعا ، التأم من جملته فى اليقظة ما أنا راسمه وحاكيه فى هذا الموضع . . قال . .» . . وفى المقابسة الخمسين : «سئل أبو سليمان عن

الكهانة . . فتصرف فى الجواب . . ومقدار الحاصل منه أثبته فى هذا الموضع ، خوفا من أن يذهب نسيانا . .» . . وفى الخامسة والستين : «هذه مقابسة نذكر فيها نوادر سمعناها فى الفلسفة العالية من أبى سليمان . .» . . وفى السادسة والستين : « . . ونذكر فى هذه المقابسة حكما سمعناها من الحرانى أبى الحسن وغيره . .» . . وفى الثامنة والستين : «هذا آخر ما فهمناه عن أبى سليمان فى هذا الفصل . .» . . وفى المقابسة السبعين : «وتكلم أبو سليمان فى التوحيد بكلام طال ودق . . وصفّيتُ هذا المقدار ، بعد استفهام كثير ، ومراجعة شديدة ، لأن الإشارة غامضة ، والإيماء خفى . .» وفى المقابسات الثالثة والسبعين والرابعة والسبعين والثامنة والسبعين والتاسعة والسبعين : «وأملى علىّ أبو سليمان فقال . . .» . . وفى الثانية والثمانين : « . . وأملى أبو سليمان على جماعة كنت أحدهم سنة إحدى وسبعين وثلثمائة . .» . . وفى التاسعة والثمانين : «نذكر فى هذه المقابسة أشياء سمعناها من أبى سليمان ، فى مجالس الأنس ، إن لم تكن من صور الفلسفة ، فإنها لا تخرج من جملتها . .» . . وفى المقابسة التسعين : «هذه مقابسة تشتمل على كلمات شريفة ، من كلام أبى الحسن العامرى ، علقت وسمعت أكثرها منه ، وهى التى مرت فى شرحه لكتابه الموسوم بالنسك العقلى . .» . . وفى الحادية والتسعين : «ليس لى فى جميع فنون هذه المقابسة إلا حظ الرواية عن هؤلاء الشيوخ . .» . . وفى السابعة والتسعين : «هذه مقابسة قد أفدناها من مواضع مختلفة ، فى أعيان كلام الأوائل ، بالترجمة المنقولة إليها . .» . . وفى المقابسة الواحدة بعد المائة : «إنما يبعثنى على

رواية كل ما سمعته من هؤلاء الجلة الأفاضل ، عشقى لهم ، وحمدى لله - تعالى - على ما أتاح منهم . .» . . إلخ . . إلخ .

فالتوحيدى - فى طول المقابسات - راوية ، يدون ما يسمع أو يُملَى عليه . . ومن الظلم للفلاسفة الذين سمع منهم أو نقل عنهم أن ننسب له هذه الأفكار . . ومن الظلم له أن نحسب على عقيدته ما فى المقابسات من نظريات ونظرات وآراء . .

وكتاب الصداقة والصديق:

الذى تقترب صفحاته - المطبوعة - من الخمسمائة صفحة، جميعه نقول ومأثورات اختارها التوحيدى ورواها وألف بينها - من المنظوم والمنثور -، ويندر أن نجد له فى هذا الكتاب بضعة أسطر، يسأل فيها سؤالا أو يعلق بها على بعض هذه المأثورات.. وهو ذاته يقرر لنا هذه الحقيقة فى مقدمته لهذا الكتاب . . فهى مأثورات «**جمعها ممن تقدم**» من الشعراء والأدباء والفلاسفة والعلماء ، بناء على طلب الوزير ابن سعدان - قبل أن يلى الوزارة - . . يقول التوحيدى فى تقرير هذه الحقيقة : «وكان سبب إنشاء هذه الرسالة فى (الصداقة - والصديق) أنى ذكرت شيئا منها لزيد بن رفاعة أبى الخير ، فَنَماه إلى ابن سعدان الوزير أبى عبد الله . . قبل تحمّله أعباء الدولة . . فقال لى ابن سعدان : **دوِّن هذا الكلام وصله بصلاته مما يصح عندك لمن تقدم.. فجمعت ما فى هذه الرسالة**[1]».

ولذلك فإن فقرات هذا الكتاب جميعها مسبوقة بهذه العبارات : أنبأنا . . وسمعت . . وقال . . وحدّثنى . . وكتب . . وكتب آخر . . وقال فيلسوف . . وقيل لفيلسوف فقال . . . وحكى . . وسئل . . فقال . . وروى . . وقرأت لـ . . . وكتب . . إلى صديق له . . . وقال كاتب . . وقال شاعر . . وقال آخر . . وقال بعض السلف . . وقال أعرابى . . وقالت أعرابية . . وقال رجل لعمر بن الخطاب . . وقال الراجز . . وقد ورد . . وأخبرنا . . وحدثنا . . والعرب تقول . . وقال فى رسالة أفدناها . . وذكر أعرابى . . وقيل لأعرابى فقال . . وأنشدنا . . وأنشدنى منشد . . وحُدِّثتُ أن رجلا قال . . وقال

(١) المصدر السابق . ص ٩ ، ١٠ .

بعض المتقدمين . . ووقع إلى رجل . . وقال كاتب . . ولكاتب . . وقال حكيم . . وقال شاعر قديم . . وقلت لأبى سليمان . . فقال : . . وكان كلامه أكثر من هذا ، لكنى أو جزته ، لأن الرسالة قد طالت ، وأخاف أن تُمَلّ عند القراءة ، وينسب وضعها إلى سوء الاختيار . . وأروى ها هنا ذُراوة – (نتفا متفرقة) – من كلام أرباب الحذق والخَرَق – (الحُمق) – فإن فيه فائدة حسنة لا أرى الإضراب عنه ولا الإخلال به . . ورويت هذا الخبر – (عن ابن عباد وأصحابه . . وابن العميد وأصحابه) – على ما اتفق ، وكنت أطلب له مكانا منذ زمان ، فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق . .»

هكذا تقوم صفحات كتاب (الصداقة والصديق) - مثلها مثل صفحات (الإمتاع والمؤانسة) و (المقابسات) - ونصوص التوحيدى فى هذه الصفحات، شاهدة على أن الرجل إنما كان راوية وجامعا ومختارا ومحققا، أكثر منه مبدعا ومنشئا ومبتكرا..

* * *

ومن هنا تأتى غرابة أمر دراسيه الذين لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة ، فساروا على منوال كتاب التراجم القدماء ، فأضفوا عليه صفات «الفلسفة» و «الكلام» وعقدوا له لواء الإمامة فى الفنون التى كان راوية لأفكار ومأثورات علمائها ، بل وقالوا عنه : إنه «فرد الدنيا الذى لا نظير له» !! . .

وإذا شئنا أمثلة على الأخطاء ، التى ما كانت لتصح أو تجوز من دارسيه المعاصرين ، والتى نشأت عن حملهم الروايات على «الراوى» بدلا من المروى عنه ، والمأثورات على «الناقل» بدلا من مبدع هذه المأثورات ، فإننا نشير إلى نماذج شاهدة على هذه الأخطاء :

١ – لقد نسب الدكتور إبراهيم الكيلانى إلى أبى حيان رأيا فى المقارنة بين المتكلمين والفلاسفة . . وساق على ذلك شاهدا من كتاب (المقابسات) يقول : إن «طريقة المتكلمين مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشىء بالشىء ، إما بشهادة من العقل مدخولة ، وإما بغير شهادة منه البتة» . .

فإذا عدنا إلى المصدر – كتاب (المقابسات) – وجدنا سياق النص على النحو التالى :

«قلتُ – (أى التوحيدى) – لأبى سليمان : ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة؟ .

فقال – (أى أبو سليمان السجستانى) – : طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ[1] . . . إلخ . . إلخ . .»

فالكلام والرأى والموقف هو لأبى سليمان السجستانى – الذى كان فيلسوفا ، ناقدا لمناهج المتكلمين – وليس للتوحيدى ، الذى لم يكن متكلما ولا فيلسوفا ! . .

٢ – وناشر كتاب (الصداقة والصديق) يقول : «ولقد نبه أبو حيان على رأيه فى الصداقة فقال :

«لقد صحبت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنبا ، ولا ستروا لى عيبا ، ولا حفظوا لى غيبا ، ولا أقالوا لى عثرة ، ولا رحموا لى عَبْرة ، ولا قبلوا منى معذرة ، ولا فكونى من أسر ، ولا جبروا لى من كسر ، ولا بذلوا لى من نصر[2] . .» . .

فإذا رجعنا إلى نص التوحيدى ، نجده راويا لهذا النص عن «جميل

---

(١) (المقابسات) ص ١٦٩ .

(٢) مقدمة الناشر . ص .

ابن مرة – فى الزمان الأول» . عندما اعتزل الناس «وعوتب فى ذلك ، فقال : لقد صحبت الناس أربعين سنة . . إلخ . . . إلخ . .»[١]

فالقول لجميل بن مرة ، وليس للتوحيدى . . **والتوحيدى كان محققا فى نسبة النصوص إلى أصحابها أكثر من دارسيه المحدثين، الذين ندر من لم يستشهد بهذا النص على أنه من أقوال أبى حيان!!..**

والغريب أن يقع فى هذا الخطأ من يعلم أن كتاب (الصداقة والصديق) قد أتمه التوحيدى سنة ٤٠٠هـ سنة ١٠٠٩م . . أى بعد صحبته للناس نحوا من تسعين عاما ، وليس أربعين عاما ، كما هى حال صاحب النص جميل بن مرة – الذى روى التوحيدى عنه هذه العبارات – !! . .

٣ – والدكتور عفيف البهنسى ، يورد نصا من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) مستشهدا به على تصور التوحيدى «للصورة الإلهية غير المشبهة» . . فإذا عدنا إلى المصدر ، وجدنا هذا النص من روايات أبى حيان التى نقلها عن أبى سليمان السجستانى[٢] ! . .

ويورد نصا آخر من ذات الكتاب ، مستشهدا به على تصور التوحيدى لـ «وصف الصورة الإلهية» . . فإذا ما عدنا للمصدر ، وجدنا هذا النص ، هو الآخر لأبى سليمان السجستانى ، وليس لأبى حيان[٣] !!

ويورد نصا ثالثا من ذات الكتاب ، يجعل له عنوانا : «**نموذج من**

(١) (الصداقة والصديق) ص ١٠ ، ١١ .

(٢) انظر (فلسفة الفن عند التوحيدى) ص ٩٣ ، ٩٤ وقارن بما فى (الإمتاع والمؤانسة) جـ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٣) انظر (فلسفة الفن عند التوحيدى) ص ٥٦ . وقارن بما فى (الإمتاع والمؤانسة) جـ٣ص ١٣٧ .

أدب أبى حيان» . . فإذا عدنا إلى المصدر ، وجدنا هذا النص من سماعيات التوحيدى واستنباطاته ، وليس من إضافاته حتى يكون «نموذجا» لأدبه[١] !!

تلك مجرد نماذج للأخطاء التى وقع فيها جمهرة دارسى أبى حيان التوحيدى ، عندما غابت مناهج «الوعى والتحقيق» عن القراءة لمصنفاته ومؤلفاته . . وسار المعاصرون فى النظر إليه وفى تقويمه وراء القدماء من كتاب التراجم والمؤرخين . .

* * *

لكن . . . ألا يمكن أن تُعد «اختيارات» أبى حيان التى اختارها وألف بينها وصنفها – دون سواها – معبرة عن «موقف فكرى» – واختيار المرء قطعة من عقله – كما قال القدماء – فتدخل هذه «الاختيارات» فى باب «الإبداع» ، أو تقف على مقربة من بابه؟! . .

إننا لا نميل إلى الإجابة على هذا التساؤل بالإيجاب . . ذلك أن **«الاختيار» إنما يكون «موقفا» إذا كان «استشهادا» يسوقه المستشهد به على صدق رأيه، ويستدل به على موقفه وإبداعه وابتكاره.. وليس هذا هو حال التوحيدى فى «الاختيار»، فالرجل يروى وجهات النظر المختلفة على ألسنة أصحابها.. فيثبت نصوص المناظرة بين أنصار النحو العربى، المنحازين إلى المنهاج الإسلامى، وبين أنصار المنطق الأرسطى، المنحازين إلى المنهاج اليونانى[٢].. وهو يورد مقولات «إخوان الصفاء» -**

(١) انظر (فلسفة الفن عند التوحيدى) ص ٣٥ وقارن بما فى (الإمتاع والمؤانسة) جـ١ ص ٨٤ ، ٨٥

(٢) انظر نص المناظرة بين أبى سعيد السيرافى وبين أبى بشر متى بن يونس حول «نحو العربية ومنطق اليونان» (الإمتاع والمؤانسة) جـ ١ ص ١٠٨ – ١٢٨ .

الذين مزجوا الإسلام بالأفلاطونية والغنوصية والإشراقية - .. وآراء المناطقة.. ومقولات فلاسفة اليونان، المشائين حينا، والأفلاطونيين فى كثير من الأحايين.. يورد كل ذلك منسوبا لأصحابه وقائليه، دون أن يكون صاحب موقف يستشهد عليه ويشهد له بهذه المرويات والاختيارات..

ومع ذلك فنحن لا نجرد اختياراته كلية من تفضيلاته ، فله فى ثنايا الاختيارات أسئلة - والسؤال موقف أحيانا - وله تعليقات واستنباطات . . كما أن له - فى كثير من الأحيان - جهدا كبيرا فى الصياغات ، وأسلوبا فنيا بديعا فى رسم الصور للأفكار والمعقولات . . وهو محقق ينبه غالبا على ما هو «نقل» و «إملاء» ، وعلى ما فيه «صياغة» ورواية بالمعنى لا بنص الألفاظ . .

ولعل الإبداع المتميز لأبى حيان إنما يتجلى فى موهبة الفنان التى امتلكها . . ففى «فنه الهجائى» - وخاصة كتابه (مثالب الوزيرين) - عبقرية فى رسم اللوحات التى تجسد المعانى السلبية والصفات القبيحة والحركات الهزلية التى ألصقها - أو اجتهد فى إلصاقها - باثنين من أعلام علماء تراثنا - الصاحب بن عباد . . وأبى الفضل ابن العميد - . .

أما ما عدا ذلك من تآليفه وتصانيفه ، فهو فيها - بالدرجة الأولى - جامع ومصنف . . له فضل الجمع والاختيار والتأليف والتصنيف والتدوين . . ومصادره هى «الوراقة» التى احترفها ، ومجالس العلماء التى حضرها ، فتصانيفه كنز لأفكار سمعها شفاهة فكان له فضل تدوينها وحفظها من الضياع . . وذخائر جمعها من كتب ضاع الكثير منها فيما ضاع من تراث المسلمين ، وخاصة فى دمار بغداد على يد التتار . .

وهو فى كل ما صنف وجمع وروى قد أقام للفكر بناء شامخا اجتهد فى الجمع والاختيار للبناته ، ومن النادر أن نجد فى هذا البناء الشامخ حشوا لا علاقة له بصناعة الفكر ، بل وعيون الأفكار ، فى عصر الازدهار الذى عاش فى بحبوحته أبو حيان . . ذلك الذى شقى بخُلُقه هو ، وليس بالعصر الذى عاش فيه ! .

الفهـــرس

الموضوع | رقم الصفحة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر